تعانق أحرف الجواب والقسم في العربية

Association between letters of Response and Oath in Arabic

أ٠د سعدون أحمد علي الرّبَعِيّ
كلية التربية – جامعة بابل
Assist.Prof.Dr.Saadoun Ahmad Al-Rubaie , College of Education , University of Babylon

ملخص البحث

هذا بحث يسلط الضوء على ظاهرة أسلوبية سياقية في لغة القرآن الكريم تتجلى في تعانق أحرف الجواب (لا، كلا ، بلى) والقسم في سياق واحد من التركيب . والتعانق في اللغة يعني التتابع والتقارب والتداني بين مقطعين أو أكثر في الكلام . فما سرّ هذا التعانق ؟ وبماذا فسَّر علماء العربية – قدماء ومحدثون – هذه الظاهرة الأسلوبية ؟ وهل هو أسلوب شائع في كلام العرب في عصر الفصاحة والبلاغة ؟ وما الأغراض المتوخاة من هذا التعانق والاقتران ؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت الباعث على هذه الدراسة التي حاولت فيها الإجابة عن تلك الأسئلة بالوقوف عند أمثلة لهذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم عزَّزتُها بأمثلة أخَرَ من الحديث الشريف ، ونصوص نهج البلاغة، والشعر العربي الفصيح ؛ لتبيين البعدين النحوي والدلالي لهذه الظاهرة بمناقشتها وتحليلها على وفق منهج علمي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة وآراء علماء العربية المتقدمين والمتأخرين . وقد تبيَّن لنا أن إدخال حرف الجواب على القسم بأنواعه ووسائله المتعددة هو أسلوب مستفيض في اللسان العربي ما زال مستعملا في لغتنا العربية بمستوييها الفصيح والعامي يستعمله المتكلمون بالعربية لتوكيد النفي وتعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه ، أو ردًّا وجوابا لكلام قد مضى وتقدّم ، أو نفيًا للحاجة إلى القسم على أمور يقينية ثابتة لا يتطرق إليها الشك أبدًا ، ويرمي إلى التأكيد والتقرير والتأثير .

Abstract

This research sheds light on the stylistic contextual phenomenon in the language of the Quran, reflected in the associationof response letters like (No, never, yes) and the oath letters in one context of structure. The association of language means sequence , closeness and convergence between two or more phrases in speech. What is the secret thatassociation، And how do ancient and modern scholars interpret this stylistic phenomenon، Was it a common style in the speech of Arabs in the age eloquence and purity of language، And what are the purposes of using association and relationship? These and other questions are the reasons behind the present study which attempts to answer these questions through examples taken from the Holy Quran, the prophetic sayings, excerpts from Nahj al-Balagha, and Arabic poetry . The research clarifies the two dimensions, syntactic and semantic,of this phenomenon by discussing and anlysing it using a scientific method following the modern theories of linguistics and ancient and modern Arab scholars' views . It is found out that using a response letter with oath letters is a common style of Arabic ,which is still in use inboth the standard Arabic and the dialectsin order to emphasize negation and exaltation of the person to whomthe oathis directed , or reply and answer previous talk , or negating the need for the oath in case of definite and fixed matters.

المقدمة

هذا بحث يسلط الضوء على ظاهرة أسلوبية سياقية في لغة القرآن الكريم تتجلى في تعانق أحرف الجواب (لا، كلا، بلى) والقسم في سياق واحد من التركيب. والتعانق في اللغة يعني التتابع والتقارب والتداني بين مقطعين أو أكثر في الكلام. فما سرّ هذا التعانق؟ وبماذا فسَّر علماء العربية – قدماء ومحدثون – هذه الظاهرة الأسلوبية؟ وهل هو أسلوب شائع في كلام العرب في عصر الفصاحة والبلاغة؟ وما الأغراض المتوخاة من هذا التعانق والاقتران؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت الباعث على هذه الدراسة التي حاولت فيها الإجابة عن تلك الأسئلة بالوقوف عند أمثلة لهذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم عزَّزتُها بأمثلة أخَرَ من الحديث الشريف، ونصوص نهج البلاغة، والشعر العربي الفصيح؛ لتبيين البعدين النحوي والدلالي لهذه الظاهرة بمناقشتها وتحليلها على وفق منهج علمي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة وآراء علماء العربية المتقدمين والمتأخرين. وقد تبيَّن لنا أن إدخال حرف الجواب على القسم بأنواعه ووسائله المتعددة هو أسلوب مستفيض في اللسان العربي ما زال مستعملا في لغتنا العربية بمستوييها الفصيح والعامي يستعمله المتكلمون بالعربية لتوكيد النفي وتعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه، أو ردًّا وجوابا لكلام قد مضى وتقدّم، أو نفيًا للحاجة إلى القسم على أمور يقينية ثابتة لا يتطرق إليها الشك أبدًا، ويرمي إلى التأكيد والتقرير والتأثير.

تعانق أحرف الجواب والقسم في العربية

من الظواهر الأسلوبية اللافتة للنظر في أسلوب القسم هو أن يأتي القسم مسبوقا بأحد أحرف الجواب الآتية (لا، كلا، بلى) في سياق واحد من التركيب،وهذا التتابع والتقارب والتداني بين مقطعي حرف الجواب وحرف القسم أو فعله ,هو ما سمَّيتُه بـ (التعانق)، فما سرّ هذا التعانق؟ وبماذا فسَّره العلماء القدماء والمحدثون؟وهل أن تعانق أحرف الجواب الثلاثة المذكورة آنفا والقسم شائع في كلام العرب؟ وهل يرتبط هذا التعانق بمرحلة من مراحل تاريخ اللغة أم أنَّ له علاقة بالإمكانيات التحويلية في اللغة العربية؟ وما الأغراض المتوخاة من هذا الأسلوب؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت الباعث على هذه الدراسة التي حاولنا فيها الإجابة عنها بالوقوف عند أمثلة لهذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونصوص نهج البلاغة والشعر العربي الفصيح من أجل استنطاق تلك النصوص ومحاولة الوقوف على خفايا هذا الأسلوب العربي من حيث البعدين النحوي والدلالي.

أولا: تعانق (لا) و القسم:

يعانق حرف الجواب (لا) فعل القسم كثيرًا متقدما عليه, ولاسيما قبل الفعل المضارع (أقسم)، إذ جاء القسم به مسبوقا بـ(لا) النافية في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، أقسم الله تعالى بنفسه ومخلوقاته، قال تعالى: ((فلا أقسمُ بربِّ المشارق والمغارب إنَّا لقادرون)) (١)،و((فلا أقسم بما تبصرون* وما لا تبصرون)) (٢)، و((فلا أقسم بالخنَّس)) (٣)، و ((فلا أقسم بالشَّفق)) (٤)، و ((لا أقسم بيوم القيامة* ولا أقسم بالنّفس اللوامة)) (٥)، و((لا أقسم بهذا البلد)) (٦)، و ((فلا أقسم بمواقع النّجوم* وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم)) (٧).

مذهب الخليل (ت١٧٥هـ) و الكسائي (ت ١٨٩هـ) أن (لا) زائدة للتوكيد، قال الخليل: "وقد تجيء زائدة وإنما تزيدها العرب مع اليمين، كقولك: لآ أقسم بالله لأكرمنَّك، وإنما تريد أقسم بالله " (٨)، وهو ظاهر كلام أبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) في مجاز القرآن، قال في قوله تعالى: ((لآ أقسم بيوم القيمة* و لآ أقسم بالنفس اللوامة)): "مجازها أقسم بيوم القيامة ، وأقسم بالنفس اللوامة " (٩).

ويرى الفرّاء (ت٢٠٧ هـ) في (لا أقسم) أنّ (لا) ردٌّ على منكري البعث والجنة والنار، وقد جاء الإقسام بالردّ عليهم في كثير من الآيات، والمعنى: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف بعده، فقال : أقسم (١٠).

والقول بزيادة (لا) ردّه الزمخشري (ت٥٣٨هـ), فهو يرى أنها جاءت بابها وفائدتها توكيد القسم، والمعنى أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له، وعدَّ دخول (لا) النافية على فعل القسم مستفيضا في كلام العرب وأشعارهم (١١).واقتفى الزمخشري (ت٥٣٨هـ), أثر الفرّاء في تفسير تعانق (لا) وفعل القسم في جعل مجيئها قبل القسم ردًّا وجوابا لكلام قد مضى و تقدم،والقسم بعدها مستأنف من غير أن يعزو رأي الفرَّاء إليه، ففي قوله تعالى: ((لآ أقسم بيوم القيمة)): قال الزمخشري: " كأنهم أنكروا البعث فقيل:لا، أي: ليس الأمر على ما ذكرتم، ثم قيل:أقسم بيوم

القيامة "(١٢).

ويرى الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في قوله تعالى: ((لآ أقسم بيوم القيمة* ولآ أقسم بالنفس اللوامة*أيحسب الإنسان ألَّنْ نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوِّيَ بنانه)): "لا أقسم عليكم بذلك اليوم، وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم: أتحسب أنَّا لا نجمع عظامك إذا تفرّقت بالموت، فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنَّا قادرون على أن نفعل ذلك " (١٣).

أما القرطبي (ت ٦٧١هـ) فيستدل بالقرآن على القرآن ويرى أن (لا أقسم) بمعنى (أقسم) بدليل قوله تعالى: ((وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)) (١٤) ؛ حيث عدّ هذه العبارة الإخبارية المؤكدة دليلا قطعيّا على وقوع القسم، وإلّا وقع التناقض بين الآيتين(١٥). والحق إنه إقسام بيوم القيامة سواء قيل بصيغة (لا أقسم) على أنها كلمة قسم واحدة مركبة من جزأين أو بِعَدِّ (لا) زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

وقد يقع حرف الجواب (لا) قبل القسم من دون أن يظهر بعدها فعل القسم، وذلك في نحو قوله تعالى: ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيْتَ ويسلموا تسليما)) (١٦). ومن ذلك ما ورد في نهج البلاغة من قول الإمام علي (رضي الله عنه): "لا والذي أمسينا منه في غبَّر ليلة دهماء، تكشِر عن يوم أغرَّ، ما كان كذا و كذا "(١٧). ومنه أيضا ما جاء في الشعر العربي كقول مسلم بن معبد الوالبي(١٨):

فلا واللهِ لا يُلفَى لِما بي
ولا لِلِما بهم أبدًا دواءُ

وقول أعرابي (١٩) :

لا والذي أنا عبد في عبادته
لولا شماتة أعداء ذوي إحن
ما سرّني أن إبلي في مباركها
وأن شيئا قضاه الله لم يكن

وقول الآخر (٢٠):

فحالِفْ فلا واللهِ تهبط تلعةً
من الأرضِ إلا أنت للذّلِّ عارفُ

ومما قالته العرب في كلامها وصار كالمثل في القسم ما رواه ابن منظور (ت٧١١هـ) عن ابن السكيت (ت٢٤٤ هـ) من قولهم: " لا والله الذي يسلِّمُك ما كان كذا وكذا" (٢١). و مما قالوه أيضا: "لا والذي أخرج النار من الوثيمة" (٢٢) ، أي: من الصخرة.ومن أقوالهم أيضا: "لا والذي أخرج قوبا من قابية"(٢٣) ، أي: فرخا من بيضة. يتضح مما تقدم من استعمالات العرب , فضلا عن القرآن الكريم لزوم تعانق (لا) والقسم إيذانا بكون الجواب منفيا.

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أن ثمة فرقا بين ذكر (لا) مع فعل القسم (أقسم)، وذكرها من دون التصريح بفعل القسم في مثل قوله تعالى: ((فلا وربِّك لا يؤمنون))، وقول امرئ القيس:

لا وأبيكِ ابنة العامري لا يدَّعي القوم أني أفرْ(٢٤)

إذ ذهب إلى أن جواب (لا أقسم) يكون منفيا ويكون مثبتا، ولم يرد جوابها في القرآن الكريم إلا مثبتا، في حين أن جواب (لا وربِّك) لا يكون إلا منفيا، والحق أنهما ليسا أمرا واحدا فالاستعمال يدل على أنهما مختلفان(٢٥). فأما (لا) في قوله تعالى: ((فلا وربِّك

لا يؤمنون)) و قول الإمام علي (عليه السلام):(لا والذي...)، فتكون على ثلاثة أضرب:

١ـ أن تكون (لا) نافية، وعندئذ تنتظم احتمالين:

أحدهما:أن تكون ردًّا لكلام سابق، قال الطبري (ت ٣١٠ هـ) في قوله تعالى: ((فلا وربِّك لا يؤمنون)): "(فلا) فليس الأمر كما تزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك يا محمد.واستأنف القسم جل ذكره،فقال:(وربِّك) يا محمد (لا يؤمنون)" (٢٦).

وعلى هذا تكون (لا) في قول الإمام علي (عليه السلام):(لا والذي...) نفيا لقول سابق, وكأنما قيل له: يا أمير المؤمنين قد كان كذا و كذا, فقال: لا ليس الأمر كذلك,ثم استأنف القسم, فقال:والذي أمسينا... ما كان كذا و كذا.

والآخر:أن (لا) هنا لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإنه أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، والغرض تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه.أو لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإن ثباته أظهر و أجلى وأقوى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم. أو أن يكون الغرض منه الاستفهام على سبيل الإنكار، والتقدير مثلا: ألا أقسم بمواقع النجوم؟ وألا أقسم بالنفس اللوامة؟ على أن ما أقسمت به حقّ (٢٧).

٢ـ أن تكون (لا) زائدة, و المعنى: أقسم بيوم القيامة، وربِّك لا يؤمنون، والذي أمسينا...، وفائدتها تأكيد معنى القسم, كما زيدت في قوله تعالى: ((لئلا يعلم أهل الكتب ألا يقدرون)) (٢٨) ، لتأكيد وجود العلم (٢٩) ، قال ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ): في قوله تعالى: ((فلا و ربِّك لا يؤمنون)):"تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد نفي المقسم عليه، وهو في ذلك كتصدير الجمل المثبتة بـــ(إنّ) "(٣٠),وقيل : إنّها مزيدة لتأكيد النفي في الجواب؛" لأنه إذا ذكر في أول الكلام و في آخره كان أوكد وأحسن" (٣١). على أني أرى أن لا زيادة في القرآن الكريم، وكل حرف فيه إنما وضع لمعنى، وأن القول بزيادة (لا) فيه يؤدي إلى تصيير النفي إثباتا، و تصيير الإثبات نفيا، ولا يخفى على كل ذي لبّ خطر ذلك و مؤداه من فتح باب الطعن في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

٣ - أنّ (لا) نافية لفعل محذوف يفسره المذكور بعد القسم, والتقدير في قوله تعالى: ((فلا و ربِّك لا يؤمنون)): "فلا يؤمنون وربِّك لايؤمنون، فأخبر أولا, وكرر ثانيا, فاستغنى بذكر الفعل الثاني عن ذكره في الأول "(٣٢).

ولعل الرأي الخليق بالقبول مما ذكر آنفا هو القول الأول بما ينتظمه من معان؛ وذلك لأن السياق يدل على أنَّه قد أخبر عن أمر ما, فردّ نافيا الأمر بقوله (لا), ولم يذكر ذلك المنفي لعلم السامع به, وجاء بعده بالقسم وجوابه جملة منفية لتوكيد ذلك النفي. أو أنه عانق بين حرف النفي(لا) والقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب, فإنه أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، والغرض تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه. على أننا لا نعدم في لهجاتنا العامية أثرا

لهذه الظاهرة من مثل قول المتهم دافعا عن نفسه ما رُمي به: لا والله ما فعلت، لا والله ما قصرت... إلخ.

ثانيا: تعانق (كَلَّا) و القسَم:

قد يرد حرف الجواب (كلّا) معانقا القسم، وأكثر وروده مقترنا بالقسم الصريح, كقوله تعالى: "كلّا و القمرِ* والليل إذ أدبر"(٣٣), وقول أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) لنبيِّنا الأكرم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بعد أن نزل عليه الوحي فعاد إليها يرجف فؤاده: "كلّا واللهِ ما يخزيك اللهُ أبدا، إنَّك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتُعين على نوائب الحق" (٣٤) . وقول الإمام علي (عليه السلام) لما قتل الخوارج, فقيل: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال: "كلّا والله إنهم نطف في أصلاب الرجال, و قرارات النساء, كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصًا سلابين"(٣٥). يتضح من النصوص المذكورة آنفا تعانق حرف الجواب (كلّا) والقسم بلفظ الجلالة (والله) لإفادة معنى المبالغة في توكيد نفي جواب القسم المحذوف والمدلول عليه بما تقدَّم على (كلّا) وما عانقته. على أنَّ تعانق القسم وأحد أحرف الجواب يؤذن بالاستغناء عن جواب القسم كثيرا وهو ما لاحظه ناظر الجيش (ت٧٧٨ هـ) ونبّه عليه في شرح التسهيل(٣٦).

وقد يرد حرف الجواب (كلّا) مقترنا بالقسم المضمر, نحو قوله تعالى: ((كلّا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية)) (٣٧) ، ويفيد معنى الردع والزجر، إذ اللام هي الموطئة للقسم،والمعنى: والله لئن لم ينته ويرتدع عما هو عليه ولم ينزجر لنسفعن بالناصية، قال الزمخشري في تفسير الآية المذكورة آنفا: "(كلّا) ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات" (٣٨).

ولعلماء النحو في (كلّا) آراء مختلفة, فمنهم من يرى أنها حرف دائما ومعناها الردع و الزجر, وهو مذهب سيبويه, وأكثر البصريين, قال سيبويه:" أما (كلّا) فردع وزجر" (٣٩) . وقال الزمخشري:" ومن أصناف الحرف حرف الردع وهو كلّا, قال سيبويه: هو ردع وزجر, وقال الزجاج: كلّا ردع و تنبيه, وذلك قولك: كلّا, لمن قال لك شيئا تنكره, نحو: فلان يبغضك وشبهه, أي: ارتدع عن هذا وتنبه عن الخطأ فيه, قال تعالى بعد قوله: ((ربِّي أهانن)), ((كلّا)), أي: ليس الأمر كذلك؛ لأنه قد يوسع في الدنيا على من لا يكرمه من الكفار, وقد يضيق على الأنبياء والصالحين للاستصلاح" (٤٠). فلا تخرج عند أصحاب هذا المذهب عن معنى الردع والزجر, ولذلك جوزوا الوقف عليها والابتداء بما بعدها. وأكثر ما وردت(كلّا) في القرآن الكريم دالة على معنى التهديد والوعيد (٤١) .

على حين رأى الكسائي أن معنى الردع والزجر ليس مستمرا فيها, فزادوا فيها معنى ثانيا يصح عليه أن يوقف دونها، ويبتدأ بما بعدها(٤٢),ثم اختلفوا في ذلك المعنى على ثلاثة أقوال:

الأول: أنها بمعنى حقًّا على رأي الكسائي ومتابعيه، وهي على هذا الرأي تكون اسما (مصدرا) يبتدأ بها

لتوكيد ما بعدها، فتكون في موضع المصدر، ويكون موضعها نصبا على المصدر، والعامل محذوف، أي أحقُّ ذلك حقًّا ، وذلك كقوله تعالى :((كلّا لما يقض ما أمره)) (٤٣) ، وقوله عزّ وجلّ ((كلّا إنَّ الإنسان ليطغى)) (٤٤) ، أي حقا (٤٥).

الثاني: أنها بمعنى (ألا) الاستفتاحية, وهذا الرأي لأبي حاتم وهي على هذا الرأي تكون حرفا، نحو قوله تعالى:((حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربِّ ارجعون* لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلّا إنَّها كلمة هو قائلها ومن ورآئهم برزخ إلى يوم يبعثون)) (٤٦) ؛ لأنها لو كانت بمعنى حقًّا لما كسرت همزة (إنّ)، ولو كانت بمعنى (نعم) لكانت تتوعد بالرجوع لأنها بعد الطلب (٤٧).

الثالث: قد تكون حرف جواب بمنزلة (إيْ، ونعم), وهو للنضر بن شميل (٢٠٣هـ), والفرّاء ومن وافقهما كما في قوله تعالى:((كلّا والقمر)) (٤٨).

في النصوص المتقدمة عانق الحرف (كلّا) القسم الصريح, والذي يبدو في قوله تعالى) (كلّا والقمر)) أن (كلّا) حرف جواب بمعنى: إيْ والقمر، إذ يمتنع كونها للزجر أو الردع؛ لأن ما قبلها ((وما هي إلا ذكرى للبشر)) مما لا يصح ردّه. وهذا ما نعتقده من الإمكانيات التحويلية في اللغة التي لا ترتبط بزمن أو مكان معيَّنَين. أما حديث أم المؤمنين السيدة خديجة(رضي الله عنها) فالمعنى الأقرب لـ(كلّا) فيه هو أن تكون بمعنى حقًّا وهو ما ذهب إليه الكسائي ومن تابعه، ويحتمل أن يكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية وهو ما ذهب إليه أبو حاتم ومن تابعه، إذ السياق يحتمل المعنيين. وأما قول الإمام علي (عليه السلام) فإنّ(كلّا) فيه على أصلها الغالب عليها وهو معنى الزجر والردع , فجيء بـها ردعا وزجرا لمن قال بهلاك الخوارج جميعا, لأنهم إنما قالوا شيئا من دون التيقن من وقوعه, فضلا عن أن القرائن السياقية توحي بذلك.

ثالثا : تعانق (بلى) و القسَم:

قد يعانق حرف الجواب (بلى) القسم متقدما عليه، وهو حرف مختص بجواب النفي، قال الرماني (ت٣٨٤هـ):"وهي من الحروف الهوامل، وهي جواب التقرير, فيقول القائل: ألم أحسن إليك؟ فتقول: بلى. قال الله ((ألستُ بربِّكم قالوا بلى)) (٤٩) ولا يجوز هنا نعم؛ لأنه يصير كفرًا، وذلك أنه يؤول إلى معنى نعم لست بربنا، وهي تكتب بالياء؛ لأن الإمالة تحسن فيها "(٥٠). وقال الزمخشري في قوله تعالى:((وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربِّي لتأتينَّكم)) (٥١): "أوجب ما بعد النفي بـ(بلى) على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكدا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد،وهو التوكيد باليمين بالله عزَّ وجلَّ"(٥٢) وفي قوله تعالى: ((زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربِّي لتُبعثُنَّ)) (٥٣): قال الزمخشري : "بلى إثبات لما بعد (لن) وهو البعث"(٥٤). وذكر ابن هشام أنه وقع في كتب الحديث ما يقتضي أن (بلى) يجاب بها الاستفهام المجرد، ومثّل له بما ورد في كتاب صحيح البخاري في كتاب الإيمان أنه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، قال لأصحابه: "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة

؟ قالوا: بلى" ، ثم قال ـ أي: ابن هشام ـ:إنه لا يحتج به لأنه قليل(٥٥).

وقال السهيلي (ت ٥٨١ هـ) في أماليه:"وأما (بلى) فكلمة فيها لفظ (بل) التي للإضراب، ولفظ (لا) التي للنفي، فمن أجل ذلك لا تقع أبدا إلا إضرابا عن النفي، ومن أضرب عن النفي أراد الإيجاب"وليس أصلها (بل)التي للعطف، فدخلت الألف للإيجاب، أو للإضراب والردّ، أو للتأنيث، كالتاء في (رُبَّت) و(ثُمَّت)، خلافا لزاعمي ذلك, وهي حرف جواب. وهي مختصَّة بالنفي، فلا تقع إلا بعد نفي في اللفظ، أو في المعنى ، وتكون ردًّا له "(٥٦).

وقد تقدم الحرف (بلى) على القسم في نهج البلاغة في قول الإمام علي (عليه السلام) في خطبته المعروفة بالشقشقية:" فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون كأنَّهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول: ((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين))، بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها "(٥٧).

عانق حرف الجواب (بلى) القسم (والله) متقدما عليه، وإنما جيء به نفيا لما قبله، أي (لم يسمعوا كلام الله)، وإثباتا لما بعده، وهو قوله: (والله لقد سمعوها ووعوها) أي: إنّهم سمعوا كلام الله سبحانه ووعوه. ويبدو أن السرّ البياني في هذا الأسلوب يكمن في قوة لفت المخاطَب أو السامع بما يحمله هذا التعانق بين أحرف النفي الجوابية والقسم من مفارقة عجيبة في إثارة انتباهه إلى أقصاه.

الخاتمة:

لا شك في أن البحث في الظواهر الأسلوبية في العربية مما يخدم اللغة الشريفة ويسهم في الكشف عن مكنونها من المعاني والأسرار والدلالات،ويوضح ملامح تلك الظاهرة اللغوية -موضع الدراسة - بتجليتها وإبرازها، وأحسب أن هذا البحث المصغر قد توصل إلى نتائج طيبة نافعة في موضوع تعانق أحرف الجواب والقسم أذكر في ما يأتي جانبا منها:

- إنَّ تعانق أحرف الجواب والقسم جاء ليحقق غرضا سياقيا معينا في النصوص والتراكيب المنتظمة له، ففي تعانق حرف الجواب و فعل القسم دلالةعلى أنَّه قد أخبر عن أمر ما, فردّ نافيا الأمر بقوله (لا), ولم يذكر ذلك المنفي لعلم السامع به, وجاء بعده بالقسم وجوابه لتوكيده.أو أنه عانق بين حرف الجواب والقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب؛ فإنه أعظم وأجلّ من أن يُقسَمَ عليه بهذه الأشياء، والغرض منه تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه, سواء قيل بصيغة (لا أقسم) على أنها كلمة قسم واحدة مركبة من جزأين، أم بِعَدِّ (لا) زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

- إنَّ ظاهرة تعانق أحرف الجواب والقسم لم تكن مقتصرة على مرحلة معينة من مراحل تاريخ اللغة مما يعني أن ثمة تطورا قد خضعت له هذه الظاهرة الأسلوبية، بل إن الإمكانيات التحويلية في اللغة تظهر في أي زمان وأي مكان من دون أن ترتبط بمنطق التطور التاريخي، ومن هنا كانت دلالة التراكيب المنتظمة لهذا الأسلوب دلالة احتمالية

تتراوح بين توكيد النفي و الزجر بالقسم أو التعظيم للمقسم عليه أو نفي الحاجة للقسم, وذلك ماتنتظمه مواضع الثقة واليقين، ويرمي إلى التوكيد والتقرير.

- تبيَّن لنا أن تعانق أحرف الجواب والقسم بأنواعه ووسائله المتعددة هو أسلوب شائع ومستفيض في العربية بل وفي لهجاتنا العامية، معناه واضح مقبول لغويا ونفسيا، مفهوم عقليا على الرغم من كل ما حصل فيه من خلاف بين علماء النحو قدماء ومحدثين.

الهوامش

١- المعارج : ٤٠ .

٢- الحاقة :٣٨ ـ ٣٩ .

٣- التكوير : ١٥ .

٤- الانشقاق :١٦ .

٥- القيامة: ١-٢.

٦- البلد: ١ .

٧- الواقعة: ٥٧ ـ٥٨.

٨- العين ٦٢/٤ (لا) .

٩- مجاز القرآن: ٢٧٧/٢.

١٠- ينظر: معاني القرآن ٣/ ٢٠٧.

١١- ينظر الكشاف ٤/ ٦٥٨ .

١٢- الكشاف: ٤/ ٦٥٩و ينظر: النحو القرآني بين الفرّاء والزّجاج والزمخشري ٢٥٠-٢٥١.

١٣- مفاتيح الغيب: ٣٠ / ٢١٥.

١٤- الواقعة :٥٨.

١٥- ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣ /١٥٣.

١٦- النساء: ٦٥.

١٧- شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٨٥ .

١٨- معاني القرآن للفراء: ٦٨/١، والخصائص ٢٨٢/٢ ، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٥٧١ (المسألة ٧٨).

١٩- عيون الأخبار ٩٦/٣.

٢٠- الكتاب ٤٥٤/١ ، ورصف المباني، للمالقي ٣٣١ ، وهو من الأبيات مجهولة القائل.

٢١- لسان العرب (سلم) ٣٢٦/٣.

٢٢- تاج اللغة وصحاح العربية ٥/ ٢٠٤٨.

٢٣- التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه، للبكري ٤١-٤٢.

٢٤- ديوانه ٦٨.

٢٥- ينظر: معاني النحو: ٤ / ٥٥١-٥٥٢.

٢٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٥/ ١٨٩ .

٢٧- ينظر: مفاتيح الغيب ٣٠ / ٧٢٠ .

٢٨- الحديد: ٢٩ .

٢٩- ينظر: الكشاف: ١٠١/٢, والبحر المحيط: ٢٩٧/٣, وإعراب القرآن العظيم: ٢٢٧/٢, والبرهان في علوم القرآن: ٣٦٠/٤، والنحو القرآني بين الفرّاء والزّجّاج والزمخشري ٢٧٥-٢٧٦.

٣٠- بدائع التفسير: ٢٨٠/١.

٣١- مفاتيح الغيب: ١٨٦/١٠, وينظر: روح المعاني: ٥/ ٧٠.

٣٢- البيان في غريب إعراب القرآن: ٢٥٨/١.

٣٣- المدثر: ٣٢ـ٣٣.

٣٤- صحيح البخاري:١/ ٣ ، ١٤٥/٣.

٣٥- شرح نهج البلاغة: ١١/٥. وينظر فيه أيضا قوله (عليه السلام): " كلا والله ولكنها لهجة غبتم عنها " ٢٤٢/٦.

٣٦- ينظر: ٦ / ٣١٣٦.

٣٧- العلق: ١٥.

٣٨- الكشاف ٤/ ٧٧٨ .

٣٩- الكتاب: ٤/ ٢٣٥ , و ينظر: حروف المعاني للزجاجي:١١, و معاني الحروف للرماني: ١٢٢.

المفصل: ٣٢٥, والآيتان: ١٧,١٦ , من سورة الفجر.

٤٠- ينظر على سبيل التمثيل: سورة مريم الآيات : ٧٩ ،٨١-٨٢، وسورة الفجر الآيات:١٦-١٧.

٤١- ينظر: مغني اللبيب: ٢٠٨/١, والمطالع السعيدة: ١٣٧/٢.

٤٢- عبس: ٢٣.

٤٣- العلق: ٦.

٤٤- ينظر: معاني الحروف للرماني:١٢٢، والجنى الداني: ٥٧٧, والبرهان في علوم القرآن: ٤ / ٣٤١، والإتقان ١٨٢/٢ .

٤٥- المؤمنون:٩٩-١٠٠.

٤٦- ينظر: مغني اللبيب: ٢٠٧/١ .

٤٧- ينظر: مغني اللبيب: ٢٠٨/١, والمطالع السعيدة: ١٣٨/٢.

٤٨- الأعراف: ١٧٢.

٤٩- معاني الحروف:١٠٥.

٥٠- سورة سبأ : ٣ .

٥١- الكشاف: ٥٦٧/٣.

٥٢- التغابن:٧.

٥٣- الكشاف: ٤ /٥٤٨،

٥٤- ينظر: مغني اللبيب: ١٣٤/١.

٥٥- الجنى الداني: ٤٢٠ -٤٢١.

٥٦- شرح نهج البلاغة:١٤٤/١ ،والآية : القصص:٨٣ .

المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن, أبو بكر جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, منشورات: فخر الدين,مطبعة نور, إيران,ط١ ,١٣٨٠هـ.

٣- إعراب القرآن العظيم,الشيخ زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ), تحقيق:موسى علي موسى سعود,٢٠٠١م.

٤- الإنصاف في مسائل الخلاف ,أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (٥٧٧هـ),تحقيق:محمّدمحيي الدين عبد الحميد, دار الفكر, د . ت .

٥- البحر المحيط,أبو حيان الأندلسي(٧٤٥هـ), دراسة وتحقيق وتعليق:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود,والشيخ علي محمد معوض,شارك في تحقيقه: د.زكريا عبد المجيد النتوني, د.أحمد النجوني الجمل,دار الكتب العلمية,بيروت – لبنان,ط١,١٩٩٣هـ.

٦- بدائع التفسير الجامع لما فسره ابن قيم الجوزية(ت٧٥١هـ), جمعه وخرج أحاديثه :يسرى السيد محمد,راجعه ونسق مادته ورتبها:صالحأحمد

الشامي,دار ابن الجوزي,السعودية,ط١، ١٤٢٧هـ.
٧- البرهان في علوم القرآن,بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٤٩هـ),تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم,مكتبة دار القاهرة, د.ت.
٨- البيان في غريب إعراب القرآن, أبو البركات الأنباري, تحقيق: د. طه عبد الحميد طه, مراجعة: مصطفى السقا, الهيأة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ١٤٠٠ هـ
٩- تاج اللغة وصحاح العربية, إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٨ هـ), تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار, دار العلم، بيروت, ط٤, ١٩٩٠م.
١٠- التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليهلأبي عبيد البكري، ملحق بذيل الأمالي والنوادر، طبع بعناية محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م.
١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن, الأمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري, ضبط وتعليق: محمود شاكر, دار احياء التراث العربي, بيروت ـ لبنان, ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.
١٢- الجامع لأحكام القرآن, أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ),تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي, مؤسسة الرسالة, بيروت ـ لبنان , ط١, ٢٠٠٦.
١٣- الجنى الداني في شرح حروف المعاني, الحسن بن قاسم المرادي, تح: د. فخر الدين قباوة, والأستاذ محمد نديم فاضل, دار الكتب العلمية , بيروت ـ لبنان ,ط١, ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م.
١٤- حروف المعاني, أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي, تحقيق: د. علي توفيق الحمد,مؤسسة الرسالة, إربد ـ الأردن, ط١ ,١٩٨٦ م.
١٥- الخصائص, أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ), تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠ م.
١٦- رصف المباني في شرح حروف المعاني, أحمد بن عبد النور المالقي (٧٠٣هـ), تحقيق: د. أحمد محمد الخراط, دار القلم,دمشق, ط٣, ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢ م.
١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني, أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ), دار إحياء التراث العربي, بيروت ـ لبنان.
١٨- شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد (ت ٧٧٨هـ) دراسة وتحقيق د.علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٧ م.
١٩- شرح نهج البلاغة, ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦ م), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, الدار اللبنانية للنشر, بيروت,ط١, ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م.
٢٠- صحيح البخاري محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) طبعة القاهرة، مصر ١٣٢٧ هـ.
٢١- العين, الخليل بن أحمد الفراهيدي, تحقيق: د. إبراهيم السامرائي و د. مهدي المخزومي، دار

الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠ م.
٢٢- عيون الاخبار, أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ), ضبطه ووثق نصوصه وعلق عليه: الداني بن قنبر آل زهوي, المكتبة العصرية, صيدا ـ لبنان, ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١ م.
٢٣- الكتاب, سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت ١٨٠ هـ), تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخانجي, القاهرة, ط٣, ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م.
٢٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل, أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) صححه وضبطه وحقق حواشيه مصطفى أحمد حسين ط، دار الكتاب العربي ١٩٤٧ م.
٢٥- لسان العرب, أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ), تحقيق الأساتذة عبد الله علي الكبير, محمد أحمد حسب الله, هاشم محمد الشاذلي, دار المعارف, القاهرة.
٢٦- مجاز القرآن, أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠ هـ), عارضه بأصوله وعلق عليه, د. محمد فؤاد, مكتبة الخانجي, القاهرة, د. ت.
٢٧- المطالع السعيدة في شرح الفريدة, جلال الدين السيوطي, تحقيق: نبهان ياسين حسين, دار الرسالة للطباعة, ١٩٧٧ م.
٢٨- معاني الحروف, علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤ م), تحقيق: د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي, دار الشروق, جدة ـ السعودية, ط١, ١٩٨٤ م.
٢٩- معاني القرآن, أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ م),تحقيق: أحمد يوسف نجاتي, ومحمد علي النجار, عالم الكتب ط٣ ١٩٨٣ م.
٣٠- معاني النحو, د. فاضل صالح السامرائي, مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ١٩٩٠.
٣١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب, ابن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ), تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد, مؤسسة دار الصادق للطباعة والنشر، ط١،طهران.
٣٢- مفاتيح الغيب, فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦ هـ), دار الفكر, بيروت ـ لبنان, ط١, ١٩٨١ م.
٣٣- المفصل في علم العربية, أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري, وبذيله كتاب المفضل في شرح أبيات المفصل, للسيد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي, دار الجيل بيروت ـ لبنان , ط٢, د. ت.
٣٤- النحو القرآني بين الفراء والزجاج والزمخشري, أ.د. سعدون بن أحمد بن علي الرَّبَعِيّ، عمان، دار الرضوان للنشر والتوزيع ٢٠١٣ م.

فوق کل ذی علم علیم
حنیف النصاری